ولاداتي الأربع!

حبيب سروري

(عن علاقتي بالكتابة والأدب والعلم، عن تأثير يوميّات حياتي على الكتابة، وعن طقوسي القديمة والجديدة في الكتابة).

عرفتْ حياتي الأدبيّة أربع ولادات:

===>>> الولادة الأولى

ولادتي الأولى، 1956، كانت في عدَن، في عصرِها الكوسموبوليتيّ المفتوحِ على جميع الناس، بمختلف أعراقهم ودياناتهم وألوانهم.
في صغري، وبفضل بيئتي العائليّة، أحببتُ حفظَ الشعر، ثمّ كتابتَه.
كنّا نمارس لعبة «السجال الشعري» أسبوعيًّا في العائلة، مساء كلّ خميس، وكانت لحظات ممتعة.
(يبدأ أحدُنا، من الذاكرة، بتلاوةِ بيتٍ من الشعر العربي العمودي، يلزم على مَن يليهِ في الترتيب أن يردّ، من الذاكرة، ببيتٍ آخر، لم يُذْكَر بعدُ، يبدأ بآخر حرفِ قافيةِ البيتِ السابق. ينسحبُ مَن يأتي دوره، ويعجز عن ذلك.
تستمرّ المباراة بالتداول الدائريّ، حتى يظلّ هناك منتصر واحد في النهاية).

من وقتٍ مبكّرٍ في حياتي، لاحظتُ أنّ لي علاقة حميميّة بالأدب والكتابة، ربما بسبب عشقِ جماليّات اللغة والكلمات الأدبيّة، أو ربما بسبب حسٍّ رهيفٍ لِلجمالِ على نحو عام، وتفاعلٍ غراميّ معه، أو بسبب رغبةٍ تغييريّة للمجتمع، تتطلّب امتلاك ناصية التعبير الأدبي.

لِوالدي أثره في ذلك، تحدَّثتُ عنه، بجانبيهِ الإيجابيّ والسلبيّ، في روايتي الأولى «الملكة المغدورة»، الوحيدة من رواياتي الإحدى عشرة، حتّى الآن، التي لا تخلو من شذراتِ سيرة ذاتيّة.

الإيجابي: ضعفُه أمام الكلمة الجميلة، وإمكانية «شرائه» بحرفٍ جيّدِ الاستخدام، بتعبيرٍ بلاغيٍّ طريف، باستشهادٍ يروق له؛ استشهاداتُه الأدبيّة المستمرة، وطرائفُه وألغازُه اللغوية التي ظلّتْ في ذاكرتي إلى اليوم، وارتبطتُ ببعضِها بعلاقات حميمة (مثل لغز «لي عمَّةٌ وأنا عمُّها!...» التي ستكون لي لحظةُ «تصفية حساب» معه، على نحوٍ ارستقراطيٍّ، باستخدام أرقى لغات الذكاء الاصطناعي، بعد حوالي أربعين سنة من سماعِه، كما شرحتُ ذلك بمقال).

باختصار شديد، بفضل والدي تجذَّرَتْ علاقتي باللغة العربيّة وبالأدب العربي بشكلٍ مبكّر، تحوَّلَتْ إلى ميسمٍ في الأحشاء.
أتذكَّر، من أقدم محاولات كتاباتي الشعريّة في المدرسة الابتدائيّة، قبل العاشرة من العمر، أشعارًا طفوليّة مثل:

فلعلَّ وعسى رغمَ أنيابِ الأسى
يعانقُ الصباحْ عالمَ الجراحْ
فيحوِّلُ الألمْ بسمةً ونَغَمْ

على نحوٍ موازٍ لذلك، لحسنِ حظّي أو لسوئهِ، لا أعرف؛ ودون أيِّ تأثيرٍ عائليّ، أحببتُ الموادّ العلميّة منذ الصغر، لا سيّما الرياضيات. بدتْ لي دوما أسهلَ الموادّ التي تدخلُ العقلَ وحدها بدون تعبٍ ولا إشكال.
في نهاية الإعداديّة (التي نظّمَ لي مدير مدرستِها، بمبادرتِه، امتحانًا خاصًّا لأتجاوزَ سنتَها الثانية)، ملأتُ، بخطٍّ جميلٍ وبمبادرةٍ شخصيّةٍ بحتة، كنتُ أظنّها عاديّةً جدًّا، دفترًا حاولتُ فيه إعطاءَ نظريات الهندسة التي درسناها في الصفّ براهينَ، بطريقةٍ مختلفةٍ عمّا في كتاب المنهج الدراسي.
لم أعتبر ما فعلتُه شيئًا ذا أهمّية، غير أنّ أستاذ الرياضيات العراقي (الذي عاد لتوّهِ من الدراسة في أمريكا) قال عنه كلامًا كبيرًا أمام الجميع، شجّعني، وضاعف من حبّي لهذه المادّة.

بَعثتُ، وأنا في الرابعة عشر، قصيدةً لمجلةٍ أدبيّةٍ يمنيّةٍ مرموقةٍ جدًّا «الحكمة» (لسان حال اتحّاد كتّاب وأدباء اليمن، شماله وجنوبه).
نُشِرَت لي مع شعراء مهمّين، دون أن تُكتب، تحت عنوان القصيدة، عبارة «شاعر ناشئ» التي تُقلِّل من تجربة الشاعر، بسبب تذكير كلمة «ناشئ» بِسِنِّه.
عصفتْ بي سعادةٌ هائلة، لا أستطيع وصفَها، لعلّها تساوي نصفَ سعادات كلّ عمري. كتبتُ عنها سابقًا، وتذكّرتُها طويلًا وأنا أقرأ مارسيل بروست في «البحث

عن الزمن الضائع»، وهو يتحدّثُ، في عدّة صفحات مدهشة، بتفاصيل جميلة في منتهى الروعة، عن سعادتهِ العارمة عند نشرِ أول مقالٍ له في صحيفة.

بعدها كتبتُ قصائد هنا وهناك. سكنَتني حينها رغبةٌ هائلةٌ في كتابةِ الشعر ونشرِه، ثمّ توقّفتُ في السابعة عشر، لدخولي في تجارب حياتيّة صعبة، عائليّة واجتماعيّة، استثمرتُها، ووظّفتُها في أول رواية لي: «الملكة المغدورة»، لا تخلو من عناصر سيرة ذاتيّة، كما قلتُ.

كنتُ أشعر آنذاك برغبة هائلة في أن أكون حرًّا من تأثير أبي وضغطه، على الرغم من «تعايشنا السلميِّ» حينًا، وحميميّةِ علاقتنا حينًا آخر؛ ومن ثقلِ وجود بعض النشطاء السياسيين الذين خنقوا حياتنا اليوميّة اليمنيّة الجنوبيّة، ودمّروها بشعارات عنفِهم الثوري؛ وأن أكونَ في الوقت نفسه مساهمًا بقوة في الحياة «التقدّميّة» في عدَنِ «الاشتراكية العلمية» التي اندمجتُ، بحبٍّ وإخلاص، بجديدِها الاجتماعيّ، ومجلاتها وكتبها «التقدميّة» التي كانت تأتينا من الأحزاب الثوريّة واليساريّة في لبنان ومصر وفلسطين.

بيد أنّها معادلةٌ عويصة، مستحيلة: أن تكون مندمجًا في المعمعة الاجتماعيّة والسياسيّة الجديدة ذات الأرضيّة التوليتاريّة، وحرًّا في الوقت نفسه!
بعد التوقّفِ لمدّة سنتين عن كتابة الشعر، كتبتُ، من وحي تجربتي الحياتيّة الصعبة ثلاث قصائد أنضج من قصائد تجربتي السابقة، وبِلغةٍ وبُنْيةٍ مختلفتين: «محاكمة في الزمن القادم»: قصيدة نقدية رافضة للأقنعة الجديدة في الحياة السياسية؛ «لأُمِّي، وهي تمحو أميّتها» (عن تجربتي في محوِ أميّةِ أمّي التي علّمتُها القراءة والكتابة، **أعيد نشرها كاملةً في نهاية هذا الفصل، لِتُقرَأ في سياقِ زمنِها)**؛ و«الريح القادمة من صنعاء».
لم تنشر جميعها حينذاك، ربما بسبب القصيدة الأولى! صدمة!

حاولتُ بعدها أن أكتب مقالات منتظمة.
- بماذا ستبدأ؟؛ سألتني مسؤولتي الحزبيّة العزيزة في منتصف سبعينيات عدَن، عندما بُحتُ لها برغبتي في الكتابة والنشر.
- بمقالاتٍ عن الحرّية؛ أجبتُ.

أعطتني كتابًا، من سلسلة «تاس» أو «مِير» السوفيتيّة، عن الحرّية. بعد قراءة بضع صفحات منه اكتنفتني أمُّ الخيبات، ورغبةٌ حادّةٌ في البكاء لا أنساها، لم أكن أعرف حينها التعبير عنها.
كلّ الكتاب كان يتحدّث، كما يبدو، عن العلاقة بين المفهومَين الفلسفيين: الحرّية والضرورة. يبدو الإنسان في سياقهِ أشبهَ بمركبةٍ فضائيّة، أسيرةِ قوّةٍ وقوّةٍ مضادّة: الجاذبيّة والطاقة الكهروحراريّة.
«تضادٌّ ديالكتيكي خلّاق»، حسب تعبير الكتاب!
تبدو الحرّية، من وجهة نظر الكتاب، كما لو كانت الجذر التربيعي لمدى انسيابِ الرغبة بين مخالب الخضوع!
قمّة الحرّية في هذا السياق، من منظور الكتاب، الانخراطُ في الحياة الحزبيّة، والالتزامُ بمبدأٍ لينينيّ ذي تضادّ ديالكتيكيّ هو الآخر: «المركزية الديمقراطية» («أرقى أشكال الديمقراطيّة»، حسب الكتاب).
عندما أستحضر اليوم ذلك الكتاب، أتذكّر جورج أورويل، وروايته 1984.
لم توجد في الكتاب، مثلما لم توجد في النظام السوفييتي التوليتاريّ، عباراتٌ أساسيّةٌ للحديث عن الحرّية: حرّية السفر، حرّية التعبير، حرّية الضمير، حرّية الثرثرة، لأنّها مُحِيت من القاموس السوفييتي كما هو حال «نوفالونج» جورج أورويل.
السبب: فاقدُ الشيء لا يعطيه بالطبع، وبكلٍّ بساطة، دون الحديث عن لغةِ الكتاب الخشبيّة.

لم أكتب أيَّ مقال حينها. تراكمَتْ لديّ رغباتٌ مكبوتة، كتبتُ قصائدَ أحيانًا، إحداها عن موت سلفادور إليندي، والأخرى «مرثية لقصيدةٍ ضائعة» (قصيدة أضعتُها، وأضعتُ مرثيتَها أيضًا، وما زلتُ أشعر، حتى اليوم، بألمٍ لِفقدانهما معًا). جميعها لم تُنشر.

===>>> الولادة الثانية

سافرت إلى فرنسا في 1976 للدراسة الجامعيّة في «الهندسة الكهربائيّة». بدأتُ أوّلًا بدراسةِ اللغة الفرنسيّة التي كنت أجهلها كليّة، وبدأ معها «سباتٌ شتويٌّ» طويلٌ، وضروريّ، في ما يتعلّق بالكتابة الأدبيّة.
غيّرتُ تخصّصي مباشرة للبدء بدراسة الرياضيات.

المشكلة الكبرى: منذ الإعداديّة والثانويّة يدرس الطلّاب، في فرنسا، «الرياضيات الحديثة» التي كانت غائبةً كلّيّة عن مناهجنا الدراسيّة في الشرق العربي آنذاك، بعكس طلاب المغرب العربي حينها.
لم تكن السنة الأولى سهلةً، لأنّي كنتُ أمّيًّا في أهمّ موادّ العام الدراسيّ! لزم أن أعوِّض الزمن الرياضيّ الضائع بجهودٍ إضافيّة، دون الحديث عن المشكلات اللغويّة...
كانت مغامرةً وتحدّيًا رهيبين فعلًا!
غير أنّي أحببتُ الرياضيات الحديثة كثيرًا، ومن أوّل نظرة! كنت أتذوّقُ الجبرَ الحديث، وأعشقُ آليّةَ براهينِه وإيقاعَها، كما أتذوّقُ الشِّعر. جذبَني سحرُهُ منذ البدء، وكنت أراكم في دفترٍ كبير، بخطٍّ جميل، أروع براهين النظريات والتمارين المحلولة التي كنتُ أحسُّ فيها موسيقا وعذوبةً مُسكِرَة.
أحببتُ الرياضيات الحديثة، مثلما أحببتُ تلك التي تعرّفتُ عليها في أوّل أسبوعٍ دراسيٍّ جامعي، بعد سنة دراسة اللغة الفرنسيّة، لتكون رفيقة حياتي وعشقي الأبديّ.

مرّت أصعب السنوات بنجاح، ولم أعد أمّيًّا في أصعب الموادّ. تلتْها سنواتٌ دراسيّة، بنجاحاتٍ وتفوّقٍ ازداد من سنة إلى سنة. اشتغلتُ، بجانب الدراسة، في أعمالٍ مختلفة في الصيف، وفي بعض العطل الدراسيّة، ممّا ساعدني على معرفة الحياة على نحوٍ أفضل، وعلى الأسفار الكثيرة.
بعد الماجستير (في جامعة السوربون، باريس 6)، عملتُ «مهندس أبحاث» طوال سنوات الدكتوراه الثلاث في الرياضيات التطبيقيّة. تخصّصتُ في علوم الكمبيوتر، ثمّ في «الذكاء الاصطناعي» بعد ذلك.

تحوّلتُ بعدها مباشرةً إلى أستاذٍ جامعيٍّ مشارك. ثمّ حضّرتُ، بعد الدكتوراه مباشرة، لنيلِ شهادةِ «التأهيل لقيادة الأبحاث».
في أقلّ مدّة، أربع سنوات، دافعتُ عنها أمام لجنة دوليّة مرموقة، تحوّلتُ بفضلِها، في 1992 إلى بروفيسورٍ جامعي (جاء ترتيبي الأوّل في الجامعات الأربع التي تقدّمتُ لها، كان عمري حينها خمسًا وثلاثين سنة ونصف، وكان عمرًا صغيرًا جدًّا مقارنة بكلِّ مَن أضحى بروفيسورًا جامعيًّا حينها، على الرغم من أنّي «أجنبيٌّ» جاء من بلدٍ «متخلفٍ»، ماركسيٍّ - لينينيٍّ أيضًا! وعلى الرغم من ضرورةِ دراسةِ اللغة الفرنسيّة من الصفر قبل بدء الدراسة الجامعيّة...

في كلِّ سنوات دراستي الجامعية، وكلّ سنوات الأبحاث العلميّة الكثيفة، قبل 1992، كانت قراءاتي الأدبيّة كثيرة، في كلّ أوقات الفراغ والإجازات، معظمها بالفرنسيّة التي كتبتُ بها، قبل هذا العام المهمِّ في حياتي، أطروحتين علميّتين، كتابًا علميًّا، وعددًا كبيرًا من المقالات العلميّة (بالإنجليزيّة أيضًا).

صدمة اكتشاف ثراء الأدب الحديث والمعاصر في فرنسا، بعد سنة اللغة الفرنسيّة، لا تقلُّ عن صدمةِ اكتشافِ دَور العِلمِ في حياة المجتمع الفرنسيّ، وريادتِهِ للحياة.
في كلّ أوقاتِ فراغي، في المساءات والإجازات، كنت أقرأ، أكثر فأكثر، الشعرَ، القصةَ القصيرة، المسرحَ، الفلسفة والرواية.
أبحث عن وسائل التعبير التي تسمح لي بِـ «تفريغ» الكثير ممّا تراكمَ في حياتي من تجارب وذكريات، والتعبير عن أفكار كثيرة كانت تختلج بي.

لاحظتُ، منذ البدء، أنّ كُتبَ الشِّعر تكاد تكون قد اختفت من المكتبات الفرنسيّة، أو هي موجودة في زوايا غير مرئيّة. أمّا المسرح (الذي أحضرهُ سنويّا، لأكثر من عقدين متواليين، خلال مهرجانات أفينيون السنويّة طوال شهر يوليو)، فقد ظلّ قلعةً حاضرةً في الثقافة، لكنّها نخبويّةٌ إلى حدٍّ كبير.
أمّا الراوية فهي الدين الجديد في فرنسا، إذا جاز القول.

ألاحظ أنَّ الجميع يقرأ الروايات، ويتحدّث عنها دومًا. رفيقةُ عمري تقرأ الروايات كلّ يوم (منذ أن عرفتُها حتّى الآن). تشعر بالاختناق، كسمكةٍ أُخرِجت من الماء، إذا أكملتْ، قبل نهاية الإجازة في بلدٍ بعيد، قراءة الروايات التي تحملها في حقيبتها. تحتاج حينها للإسعافات الأوليّة الضرورية للبقاء حيّةً على ظهر البسيطة. يلزمني أن أدقّ كلّ الأبواب، قلقًا مضطربًا، لأستعير لها روايات، تنسجم مع ذوقِها، ممّن أراهم على الشواطئ، أو ممّن دخلتُ معهم بعلاقاتٍ ودّيّة حولي، قبل أن تفقدَ الوعي كمدمنةِ مخدّرات.

ألاحظ أيضًا، بعد كلّ إجازة صيف، خروجَ أكثر من 500 رواية جديدة إلى المكتبات الفرنسيّة. يبدأ موسم الجوائز، ولا يتوقّفُ الناسُ والصحفُ ووسائل الإعلام، في إطار زخمٍ ثقافيٍّ عرم محموم، عن نقاشات كلّ جديد.

جائزة الغونكور السنوية، لأهمِّ روايةٍ أدبيّة، تستقطب القرّاء بأعداد هائلة (رواية «شيءٌ شاذ»، التي نالت غونكور 2020، لأستاذ الرياضيات السابق، تييري لوتيليه، التي يمتزج فيها الخيال العلميّ بالرواية البوليسيّة، بِيعت منها مليون نسخة في العام الأول فقط، قبل أن تتحوّل إلى كتاب جيب، ويتضاعف عدد مبيعاتها).

وجدتُ نفسي، رويدًا رويدًا، أبتعدُ قليلًا عن قراءة الشِّعر، وأقرأ الروايات بالفرنسية بِنَهم. شدَّني تنوّعُ أجناسِها، وتفرّدُ كلِّ عملٍ روائيٍّ بأسلوبه الخاصّ ومواضيعه. جذبَني حضور الفلسفة والعلم في الرواية، ثراء الروايات التاريخيّة والروايات الاستباقيّة.
أمّا الحرّية التي تتدفّق في الروايات فقد صارت منبع طاقة وسحر، بالنسبة لي، غذاء حياتي.
بيد أنّ أكثر ما أثارني، منذ أولى قراءاتي المنتظمة للروايات في السنوات الجامعيّة الأولى، هو فنّ التخييل. هزّةٌ ما غربلتْني كلّيّة، في أثناء تجربةٍ قديمةٍ معه، أسردُها هنا:

قرأت روايةً لروائيّ فرنسيّ، خلطتُ فيها بين حياة الراوي وحياة الكاتب لفرط حميميةِ السرد فيها، ولوجودِ مطبّ أو مطبّين افتعلَهما المؤلّف (أو استعارَهما من حياتهِ الواقعيّةِ المعروفة) ليجعلَنا، ربما، نظنُّ أنّ الراوي هو الكاتبُ نفسه!
ظننتُ بعدها أنّي أعرف كلّ تفاصيل حياة هذا الرجل، الأكثر حميميّة، عندما كان في بداية العشرينات من عمره!
ثمّ بعد سنوات، قرأتُ له روايةً أخرى، تدور في سنوات عمرِهِ نفسها في الرواية السابقة، حشر فيها، في سياق حياة الراوي، مطبّاتٍ صغيرةً توهيميّةً أخرى، كما اكتشفتُ بعد قراءتها، لكن لا علاقة لأحداث الرواية الجديدة بالرواية الأولى من قريبٍ أو بعيد. حياتان لا يربطهما رابط!
لو كنتُ قرأتُ هذه الرواية الثانية، قبل الأولى، لكنتُ ظننتُ أنّي أعرف تفاصيل حياة الكاتب في تلك السنوات.

يا للوهم إذًا! جنّ جنوني فعلًا! قرّرتُ بعدها ألّا أقرأ أيَّ رواية (غير مكتوبٍ في غلافها«سيرة ذاتية») إلا باعتبارها روايةً تخييلية، وإن حاولَ الكاتبُ جعلَنَا نظنّ أنّها حياته.

تعلّمتُ من ذلك الدرس مدى مقدرات التخييل الجبّارة على توسيع العالم، عبر خلقِ حيواتٍ جديدةٍ تُضافُ للحيوات الحقيقيّة. استوعبتُ أيضًا أهمّيّة القراءة المجرّدة للروايات (أقسمتُ بعدها ألّا أربطَ من قريبٍ أو بعيد بين حياة الكاتب والراوي).

وجدتُ نفسي، يومًا بعد يوم، أنهلُ، مسحورًا مفتونًا، من قراءة الروايات المعاصرة، غالبًا والكلاسيكيّة أحيانًا، الفرنسيّةِ أو الأجنبيّةِ المترجمة إلى الفرنسيّة. ثراؤها المتواصل والمتطوّر، المنفتح على جديد الحياة سنويًّا، أدهشني أكثر فأكثر.
بدتْ لي الروايةُ مدرسةَ الحياة بامتياز، والوسيلةَ الأمثل لاستيعابِ تعقيدات الحضارة الراهنة، ومتاهات الطبيعة الإنسانيّة.
لاحظتُ بألم أنّها في عالم، وثقافتُنا العربية، حيث الأمّية والتفكير السحريّ الديني، في عالمٍ آخر.
كنت أراقب دومًا، بكلّ أوجاع الدنيا، كم تمنع ثقافتُنا العربيّةُ السائدة نشوءَ العقليّة العلميّة، وكم تكبحُ جماحَ الخيال (الذي يتطلّبُ قسطًا هائلًا من الحرّية)، بل كم تحاربهما، دون الحديث عن رواياتنا العربيّة التي ما زالت في طور جنينيّ، لا تأثير لها في حياة الإنسان العربي إطلاقًا.
ودون الحديث عن غياب العلم والفلسفة في رواياتنا، وعن خلوّها من رواية التخييل العلمي، ومن الرواية البوليسيّة (باعتبار أنّ كلّ حياتنا العربيّة، كما يقولون من باب السخرية، روايةٌ بوليسيّة، ولا نحتاج لهذا الجنس الأدبي)، ومن الرواية الاستباقيّة كما لو كانت قراءة فنجان، لأن «المستقبل بيد الله»!...

طوال تلك السنوات التي سبقت 1992، تجمَّدتْ تقريبًا علاقتي بالعربيّة كلغةِ كتابةٍ أدبية، لعلّي لم أكتب خلالها غير أنصاف قصائد أهملتُها، أو نصوصًا شعريّة أحيانًا، ظهرتْ في ديوانٍ لاحق بعنوان «شيءٌ ما يُشبِهُ الحب».
غير أنّ تراكماتٍ لسيناريوهات ومواضيع كتابات سرديّة جمّة كانت تتشكّل على الدوام في لا وعيي الدفين، طبقات فوقها فوق بعض تضغط وتضغط، بانتظار ولادة ثالثة.
في تلك السنوات، لا سيّما في نهاية الثمانينيّات وبداية التسعينيّات، برزتْ رغبةٌ حادّة في خوض مغامرةٍ روائيّة، بعد أن تعدّدت تجارب قراءاتي الروائيّة.

كان قراري أن أنتظر الولادة الثالثة، أن أتحوّل إلى بروفيسور أوّلًا، في أسرع وقت، حتّى أكون مسيطرًا على وقتي أفضل ما يمكن، قبل خوض هذه التجارب بحرّية.

===>>> الولادة الثالثة

بعد الولادة الثالثة في 1992، بدأتُ بكتابة رواية «الملكة المغدورة» بالفرنسيّة. ترجمَتُها إلى العربية، من قبل الأستاذ علي محمد زيد، كانت لحظة جوهريّة في مساري السردي.
أيقظَتْ ترجمتهُ كلمات عربيّة كنت أعشقها، ونسيتها؛ أشعلَتْ الرغبة الهائلة في الكتابة بالعربيّة، لكن من وحي مكتسبات الفرنسيّة وروحها النابضة المتجدّدة الآسرة، بجانب مواصلة متعة القراءة بالفرنسيّة؛ وربطتني بتفاعل مباشر مع القارئ في اليمن والعالم العربي، ضاعفَ من رغبتي في الكتابة!

وجدتُ حينها نوعًا من التكامل والتناغم والانسجام مع الذات والعالَم، بشكلٍ أو بآخر. تفجّرتْ فيّ بعد ذلك رغبة خوض أول مشروع كتابة سرديّة بالعربيّة مباشرة: «همسات حرّى من مملكة الموتى». سبع قصص قصيرة، طويلة جدًّا في الحقيقة، لعلّها كانت فعلًا مشاريع روايات مستقبليّة أكثر ممّا هي قصص قصيرة بالمعنى التقليدي للكلمة، سنجد ظلالها وامتداداتها أحيانًا، على نحوٍ ما، في معظم رواياتي لاحقًا.

بجانب كتابة الروايات بدأتُ بكتابة مقالات صحفيّة دوريّة في بعض الصحف اليمنيّة والعربيّة، ثمّ أسبوعيّة منتظمة، وبين الحين والحين في صحفٍ فرنسيّة كليبراسيون واللوموند.
في كلّ المقالات العربيّة، أحاول أن أتحدّثَ وأجادلَ بجرأة وحرّية في قضايا أدبيّة أو فكريّة أو سياسيّة، وأن أكتب قراءات نقديّة ودراسات وانطباعات متنوّعة.
جمعتُ بعضها، لكن في صيغٍ أوسع من صيغ المقالات وأكثر حرّية، ضمن ثلاثة كتب: «عن اليمن، ما ظهر منها وما بطن»، «لا إمام سوى العقل»، والثالث: «لِنتعلّمَ كيف نتعلّم!».
جمعَ الأوّل مقالاتي الخاصّة باليمن حينذاك.
ترافق الثاني: «لا إمام سوى العقل» (عبارة أبي العلاء المعرّي، بطل رواية «تقرير الهدهد») مع كتابة روايتَي «عرَق الآلهة» و «تقرير الهدهد» وحروبهما

الروحيّة، وواكبَهما في بحثهِ عن دحضِ كثيرٍ من المسلّمات غير العقليّة السائدة عربيًّا.
وواكبَ الثالثُ كتابةَ رواية «حفيد سندباد» وهمَّها الكوني، في محاولاته لاستيعاب حضارتنا الدوليّة الراهنة واستشرافها، والمساهمة فيها على نحو فعّال.
محاوره الثلاثة: الطبيعة الإنسانيّة، كوكبنا الأزرق اليوم، معالم حضارتنا الجديدة.

هكذا كلّ كتبي حتى الآن (باستثناء آخرِ رواياتي التي ستنشر قريبًا، وكتاب عن تجربتي الروائيّة أشتغلُ عليه الآن)، أيْ عشر روايات، وثلاثة كتب ثقافيّة، ومجموعة قصَصِيّة، وديوان شعر، جميعها أبناء عصرِ ولادتي الثالثة، طُبعت، ونُشرت خلالها.
الكتابان الجديدان ينتميان إلى عصر ولادتي الرابعة التي سأتحدّث عنها بعد قليل.

عن طقوس الكتابة، في زمن الولادة الثالثة، أقول: بحكم عملي، كان لزامًا عليّ أن أتفاوضَ دومًا مع الوقت، أن أخلق أطول ما يمكن من الاستراحات الزمنيّة، أن (أشقلبَ) مواعيدها، وألاصقَ بينها قدر ما أستطيع، للعثورِ على الوقت الطويل اللازم والحرّ للكتابة.
لزمني، مثلًا، أن أضعَ كلّ محاضراتي التدريسيّة الأسبوعيّة في يومٍ واحد، وكلّ لقاءاتي الأسبوعيّة مع طلبة الدكتوراه الذين أشرفُ على أطروحاتهم، وكذا كلّ اجتماعات المشاريع الجامعيّة التي أترأسها، في يوم واحد.
سمح لي ذلك بالتنفّسِ والكتابة المنتظمةِ خلال يومين كلّ أسبوع، على الأقلّ، إضافة إلى العطل المدرسيّة.

رافقتني دومًا دفاتر جيبٍ صغيرة، أو وريقات، ثمّ الهواتف المحمولة، لِتسجيل كلمتين عن خاطرةٍ داهمتني في لقاء عمل، في الطريق أو في مقهى؛ أو للاحتفاظِ بكلمةٍ جميلة نسيتُ استخدامها في نصٍّ أكتبُه...
ثمّ هناك الليل وساعات النوم التي يشتغل فيها الدماغُ لأرشفةِ المواضيع، لانتقاءِ الكلمات أو تصحيحها، لإخراجِ الجُمل الأنيقةِ البديلةِ لجُملٍ في نصٍّ أكتبُه، لِترتيب الأفكارِ أو لِولادتِها، أو للتنبيهِ بنقصٍ ما في بعضها، ما إن أصحو حتّى أراها أمامي على صحنٍ من ذهب!

كنتُ أحاول دومًا أن أجدَ في الكتابة الأدبيّة إجازةً حميدةً وسعيدة من عملي الجامعيّ، والعكس صحيح. بهِ أهرب من الدوران كالخذروف حول نصٍّ أدبي، قبل العودة إليه بروحٍ وطاقات جديدة.
أفضلُ أوقاتِ كتابتي الفجر والصباح، أصحو مبكّرًا دومًا، أمّا أفضل أوقات تفجّرِ أفكار الروايات وموادّها الخامّ فهي ساعات السفر، ساعات السفرِ بالقطار (آخذهُ أسبوعيًّا أكثر من مرّة)، والمناظرُ تسيلُ بسرعةٍ أمام ناظري؛ أو ساعات السفر بطائرةٍ (أسافر كثيرًا جدًّا أيضًا)؛ أو ساعات المشي الطويل، أمشي كثيرًا كلّ يوم، أعشقُ المشي (مثل السباحة).
ساعات ما قبل النوم أو ما بعده تقع أيضًا ضمن ساعات الإلهام الروائي التقليديّة.

حاولت دومًا، قدر ما أستطيع، ألّا تؤثّر الأحداثُ اليوميّة في منوال حياتي هذا، لذلك «تهرّبتُ» دومًا من تحمُّلِ المسؤوليّات الإداريّة الكبيرة: إدارة مختبر علمي، أو قسم جامعي، لأنّها تنهك الدماغ، وتستحوذ عليه كلّيةً.
اكتفيتُ فقط بعضويّة المجالس العلميّة أو الإداريّة أو مجالس الدراسات في بعض الجامعات.

بيد أنّي كنتُ أظنّ، حتّى بداية عام الكوفيد، أنّ طقوسي هذه هي الطريقُ الملَكيّ للكتابة، لكنّي في عام الكوفيد، لم أعد أسيطرُ، كما يلزم، على معادلاتها كالسابق.
مع ازدياد التّشتّتِ الذي أعقبَ بدايات الكوفيد، وبسببِ المتابعة اليوميّة الشديدة لأحوال الناس والأصدقاء والأوضاع السياسيّة والإنسانيّة التراجيديّة في بلداننا، ومع الحاجةِ لقراءة يوميات الجميع في الشبكات الاجتماعيّة، تعثَّرتُ عن ضبط طقوسِ الكتابةِ هذه، كما كانت قبل سنة الكوفيد.
لذلك خفّ الإنتاجُ الروائيّ والكتابيّ، نسبيًّا، خلال سنين ثلاث أو أربع.
كنتُ قد وصلتُ إلى «نهاية دورة» (Fin de cycle)، وبحاجةٍ إلى ولادةٍ رابعة!

===>>> الولادة الرابعة

أكملتُ، في 1 مارس 2023، أداء خدمةِ مجموع الفصول التي تسمح بالتقاعد (منها سنوات ممارسة وظيفة بروفيسور التي أدرتُ خلالها كثيرًا من الأبحاث والمشاريـع العلميّة، لأكثر من ثلاثين سنة).
تحوّلتُ إثرَها إلى بروفيسور «Emeritus» (يظلُّ بسببهِ مكتبي في الجامعة، وأستمرُّ في قيادة بعض المشاريـع والأبحاث الجامعيّة، وإن خفّفتُ من ذلك إلى الحدِّ الأدنى).

بدأ حلمي بِتكريس كلِّ وقتي أو معظمه، بِحرّيةٍ مطلقة، للكتابة، يتحقّق أخيرًا.
آخرُ محاضرة جامعيّة، أنهيتُ بها عدد ساعاتِ خدمةِ آخر فصل دراسيٍّ، كانت في 20 يناير 2023.
دُعيتُ بدءًا من اليوم التالي، 21 يناير 2023، ولِشهرين ونصف، لِمنحةِ كتابةٍ نظّمَتْها جامعةُ درَم ببريطانيا، بالتعاون مع مجلة بانيبال، ثمّ لحقتْها دعوةٌ أخرى في جنوب البرتغال حيث أجلسُ الآن، منذ بداية مايو 2023، لِكتابةِ هذا المؤلّفِ عن آرائي وتجربتي الروائيّة.

أنهيتُ، بعد دعوةِ بريطانيا بشهرين، روايتي الحادية عشرة التي ستُنشرُ قريبًا، ثمّ بدأتُ، مباشرةً بعدها، هذا الكتاب.
ظروف كتابتِهما عدّلتْ رأيي بما اعتبرتُهُ سابقًا الطريقَ الملَكي للكتابة، عبر خلقِ استراحاتٍ ذهنيّةٍ طويلة متلاصقة.
يبدو لي الآن أنّ ذلك الطريق ممكنٌ لفترةٍ ما بالتأكيد، لكنّه يتطلّبُ مفاوضاتٍ مرهقةً مع الوقت والعمل، يزدادُ ثقلُها مع الزمن.

لا يوجد، في الحقيقة، أفضل من طقوس الكتابة الجديدة، دون مشاغل كثيرة أخرى موازية، بِحُرّية مطلقة، ودون ضوضاء، مع محاولة الابتعادِ قدر المستطاع عن تأثير ضغط الحياة اليوميّة والشبكات الاجتماعيّة.
هكذا أرى الأمور الآن، من وحي جدوى وفعاليةِ وإلهامِ إنتاجاتِ الأشهر الأولى من ولادتي الرابعة.
آهِ، لو بدأ المرء حياتَهُ من الولادة الرابعة مباشرة!

أخيرًا، لو يجوز لي هنا أنْ أعتبر هذه الولادةَ الرابعة بدايةَ النصف الثاني من حياتي (لِمَ لا؟! قليلٌ من الأحلام الجميلة لا يضرّ)، فهو كالنصف الثاني من أيّ رواية: أجمل من نصفها الأول!
ليس لأنّ نصفَها الأوّل قبيحٌ، لكن لأنّ الزمنَ خطّيٌّ، يتقدّمُ إلى الأمام بكلّ بساطة. النصف الثاني في أيّ رواية أجملُ دومًا، لأنّه مملوء بأصداء النصف الأوّل منها، وليس العكس!
هذا ما ألاحظُه إذا حلّلتُ، على صعيد الإنتاج الأدبي، نتائجَ الأشهر الأولى من حياتي الثانية!

===

لأُمِّي وهيَ تمحُو أُمِّيتَها

(لمن ترعرعوا وإيّاي في ظِلِّها الحنون: أروى، إلطاف، رضوان، سهام، فتحية، محمد، هدى).

.1
اللَيْلُ في أسفَارِهِ الأخيرَة
مُعرْبِدُ الْخُطَى، يَنَامْ
والأَنْجُمُ المنيرَةُ
تَسيرُ نَحوَ مَضْجَعِ الغَرامْ
في شُرْفَةِ المزَارِعِ الَتي تثاءبَتْ
[الكادحونَ النائمونَ يحلمونَ بازْدهارِهَا
تَشِعُّ من أَحلامِهِمْ روائحُ الليمونِ والحصَادْ
وزَغْرداتُ الفُلِّ والنسْرين]
الْكُلُّ نائمٌ
وأَنتِ تَقرئِينْ!
.2
شَهيَّةٌ عَيناكِ عِنْدما
تُمَزِّقُ الْقِناعْ
فِي هامةِ الحروف تعضُّ مِنْ أكْتافِها

تَمتَصُّ ما تشَاء.
سُهَادُهَا ـ لو تعرفين ـ
صَلاَتُنا بمعبدِ الرجاء،
قُربانُنَا للفجرِ، للضياء.
بَهِيَّةٌ أَصَابعُ النّهارِ في يَدَيْكْ
تُصادِمُ الْحروفْ
فيَطْلَعُ الشرْ
قَنْديلُ قَلْبٍ طَالما انتَظَرْ
فِي ظُلمَةِ الطَّريقْ
أَنْ يبدأَ السَّفَرْ
.3
غَدًا، عزيزتي
بيَارِقُ الصباحِ عندمَا تَرِفْ
سَتَنْثَني قَسَاوَةُ الأَلِفْ
بِرِقَّةٍ وخِفَّةٍ ويَطْلَعُ الثّمَرْ
فتَرقُصُ النِّقَاطُ في أَزِقَّةِ الْحُروفِ
ويَرْقُصُ الشَّجَرْ
تَنَاغُمًا ومَصرَعَ الذي أَمَرْ
آباءَنا بِجَهلِ كلِّ شيء
لمَّا يرى عينَ القمرْ
والزهْرَ والآمالَ والقلاعْ
فَطيرَةً دافئةً
يَمْضَغُهَا الجِيَاعْ
.4
غدًا، حبيبتي
إطْلالةُ الصباح عندما تَحِينْ
بِلَذَّةِ الْعناقِ سَوْفَ تَقْرئينْ
عِبَارَةً مُضيئَةً فِي جَبْهَةِ الدفاتر
في بُؤْرَةِ التكوينِ والسنين:
«سَيَصْنَعُ الإنسانُ كُلَّ شيء!»
نَعَمْ!سيَصْنَعُ الإنسَانُ كُلَّ شيء:

الحُبَّ والأطْفَالَ والبَشَائرْ
آفَاقَنَا ورَوْعَةَ المَصَائرْ
آمَالَنا، ولَحنَهَا الرَّخيمْ
دُرُوبَنَا، وحُلْمَنا الْعَظيمْ

إبريل، 1974

====

(فصل من كتابي: «الرواية مدرسة الحياة»)